الفكر الطائفي
وأثره في أنقسام الأمة[1]

الاستاذ صادق العبادي

تمهيد:

الحديث عن الوحدة الاسلامية ونبذ الطائفية والمذهبية كان ولا يزال الهدف والحلم الكبير عند دعاة الفكر والاصلاح منذ اكثر من قرن من الزمان، وذلك نظراً لتأثيرات حالة التمزق والفرقة التي اصابت الامة الاسلامية والتي حولتهم إلى طوائف ومذاهب ومجتمعات منفصلة بعضها عن بعض، وما يحدث بينهم من مصادمات وخلافات ومشاحنات فكرية والذي يؤدي بالنتيجة إلى مزيد من الضعف

(١) بحث القي في ندوة مستجدات الفكر الاسلامي المعاصر الرابعة - الكويت بتاريخ ٩ رجب ١٤١٥هـ

السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وجعل الانسان المسلم يتقوقع في إطار مذهبي محدود بدل أن يتسامى في إطار الشخصيةالاسلامية. وما أشد ما لهذا الواقع من تأثير على إبعاد الإسلام عن واقع الحياة ووضعه في دائرة التراث،والتاريخ، وبالمقابل إفساح المجال للقوى الأجنبية للنفوذ السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والعسكري، في بلادنا الإسلامية وتحويلها إلى مقاطعات صغيرة ومناطق نفوذوبؤر للصراع تسيطر هي على مفاتيح العمل والتأثير فيها، وجعل المسلمين بدل أن يعيشوا ضمن دائرة إسلامية واسعة لها أهدافها التنموية والحضارية والرسالية جعلهم يعيشون ضمن دائرة من السلبيات والأحقاد والحساسيات المختزنة والتي يملك الأجنبي فتيل إشعالها حسب المرحلة المناسبة عبر الحروب الحدودية والداخلية والطائفية.

وهذا هو الذي يدفع الكثيرين من أبناء الأمة لبحث الموضوع تارة تحت عنوان (الوحدة الاسلامية) واخرى تحت شعار (التقريب بين المذاهب) او (الطائفية وأثرها في انقسام الامة).

ولابد لنا من مراجعة سريعة لمفهوم الطائفية وجذورها ونشأة المذاهب الفقهية والكلامية.

أولاً: مفهوم التعصب والطائفية:

إن هناك فرقاً كبيراً بين التعصب والطائفية كحالة فكرية أو سلوكية أو نفسية سلبية تتسم بها بعض الجماعات وبين المذاهب الفقهية، والكلامية، والاتجاهات الإسلامية المختلفة التي ولدت ضمن عوامل وتطورات فكرية وتاريخية مختلفة، ربما لاتكون العصبية الطائفية من سماتها.

إن الحالة لاتقتصر على الدائرة المذهبية فقط وإنما أيضاً ضمن الدوائر

العنصرية، والقبلية، والجغرافية، والحزبية، السياسية. كذلك فإننا لانستطيع إتهام الطائفية بأنها شر مطلق ذلك أنها جزءٌ من التركيبة الإنسانية والفطرة البشرية؛ وهي ربما تكون مفيدة في حالتها الطبيعية المعقولة وربما تنزلق إلى دائرة الإفراط والإنحراف والسلبية؛ في الحالة الشاذة وغير المعقولة.

يقول الامام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالخلاق الرغيبة والاحكام العظيمة والاخطار الجليلة والآثار المحمودة».(١)

أما الجانب السلبي القابل للرفض من الطائفية والتعصب فهو يعبر عن انحراف في مسيرة المقتضيات الطبيعية، ذلك أن الفرد والأمة قد يبتليان نتيجة عوامل بالضعف في الشخصية المحددة - سواء على الصعيد العقائدي، أو العاطفي، أو السلوكي - فإذا ما صادف ذلك توفر عامل خارجي تحريضي أدى الأمر إلى ما نشاهده من أوهام عقائدية من جهة، وتعصب جاهلي مقيت من جهة اخرى، ونعني بالعامل الخارجي التأثيرات التي يمتلكها ذوو المصالح الضيقة، ويسعون لايجادها في النفوس تحقيقا لمطامعهم وتمويها على الاخرين وتسخيرا لهم لتحقيق تلك المآرب الدنية. فالضعف في الشخصية الفردية أو الاجتماعية، والاعجاب بالنفس او الطائفة في الولاء، وتأثيرات النفعيين والمترفين، كل هذه الامور لها دورها الهام في تحويل الامور النسبية الى مطلقة. فالقبلية والنسب وأمثالهما أمور نسبية قد تكون طبيعية في حدود معقولة، أما الخطر كله فيكمن فيما

(١) نهج البلاغة.

لو حاول الانسان ان يصعد بهذه الامور الى مستوى الامور المطلقة والمعايير العامة، فحينئذ تكون الكارثة وعندئذ تكون (الطائفية) قد تجلت بأبشع صورها وأخس اشكالها، وحينئذ يتحول النسبي النافع الى قيد على الذهن الانساني يمنعه من الانطلاق الحضاري البناء باعتبار ان هذا النسبي يرتبط بظروفه الموضوعية، فإذا جعل مطلقا لهم يعد يمكن للانسان ان يتخطى هذه الظروف، وحينئذ فالجمود والانحطاط المقيت.

إذن فنحن عندما ندين الطائفية وندعو إلى نبذها على الصعيد الفردي والاجتماعي لانقصد مطلقاً: أن يتنازل الفرد أو المجتمع عن عقيدته وإيمانه، أو أن لايميل عاطفياً إلى قومه، أو طائفته، أو وطنه. كما لانقصد أن لايدافع عن مبادئه التي آمن بها بقوة وولايعلن رأيه بكل صراحة وأن لايعمل على تقوية الخط الذي يؤمن به بالسبل الإيجابية الحصيفة وإنما الذي نعنيه ويعنيه كل من ينطلق لإدانة هذه الصفة من أسباب موضوعية إنسانية هو: رفض كل انحياز غير موضوعي إلى عقيدة، أو طائفة، أو وطن. أو قومية. وابتعاد عن المنطق السليم، والحوار الحر البناء، ومنع الآخرين من إبداء آرائهم بكل حرية ومنع ذوي الاختصاص من مناقشة فكرة ما والوصول إلى صخرة الواقع ولب الحقيقة.[1]

ثانياً: المسألة الطائفية والمذاهب الفقهية عواملها.. ومراحل تطورها:

إن الهدف من دراسة المسألة الطائفية كحقيقة تاريخية وعلمية، وكقضية تدخلت عدة عوامل في صنعها وتأجيجها ومن ثم حرفها عن سيرها الطبيعي هو الوصول إلى مشروع قناعة مشتركة يمكن ان يكون دافعاً لإيجاد نواة التفاهم

(١) مجلة التوحيد العدد ١١/ ١٤٠٤هـ حول الطائفية أنواعها وتطبيقاتها.

والتقارب الحقيقيين بين مختلف الاتجاهات الإسلامية ومن ثم بناء الأساس الراسخ لهيكل الوحدة الإسلامية الكبرى.

ويبدو أن تحقيق ذلك الهدف لايمكن أن يتم بمعزل عن البحث الموضوعي المعمق لجذور المسألة، بعد الاذعان بوجودها كمشكلة معقدة وكواقع مر نعاني منه، وطرح جميع أسباب نشأتها، وعواملها، وظروفها، بكل وضوح وتجرد ودون انغلاق أو تعصب أو أحكام سابقة، والحديث الصريح في هذا المجال سيكون مثيراً وحساساً دون شك، حتى قديتصور بعضهم أن مثل هذا الحديث يشكل - بحد ذاته - إثارة للروح الطائفية.

وقديتصور بعض آخر أنه معني بكل السلبيات التي سيحفل بها الحديث عن مسيرة الخلاف والصراع بين التيارات الفكرية، والمذهبية، ولكن الحقيقة موازية تماماً لهذين التصورين ولكل التصورات التي تنظر إلى المسألة بمنظار سلبي. فدراسة الأحداث والظروف التي رافقت المسلمين منذ عصر صدر الاسلام في مجال المسألة الطائفية، بعمق وموضوعية تعد خطوة أولية في طريق التفاهم والتقارب المشترك.

العوامل التاريخية للخلاف والتفرقة:

وتتلخص العوامل التاريخية التي خلقت بذور الخلاف والتفرقة والتي زرعتها بين المسلمين فيما يلي:

أولاً: التفسيرات المختلفة للقرآن الكريم والسنة المطهرة والاجتهادات الخاصة التي يصيب بعضها ويخطىء بعضها الآخر، والتي انتقلت من الصعيد النظري إلى المجال العملي ثم تغيرت إلى شكل تعصب أعمى.

ثانياً: المصالح الضيقة والاهواء التي تقاذفت بعض المسلمين.

ثالثـاً: الايـدي المغـرضة الدخيلة المتمثلة ببعض العنـاصـر الجـاهلية، والمنافقة، واليهودية، التي ما فتئت تحاول الفتك بالإسلام وتمزيق وحدة أبنائه.

لقـد كانت سقيفة بني ساعـدة في المدينة المنـورة هي المسـرح الذي شهد فصول بدء الخلاف ومن هنا فقد كانت «الخلافة» هي أساس الانشقاق الأول.

ومع أن الإمـام علي بن أبي طالب عليه السلام بقي يرى أنه أحق بالخلافة، إلا أنـه بـذل كل سعيه لتجاوز آثار الخلاف، حفاظاً على وحدة الأمة، حيث وضع بـذلك الأسس الأولى للتقـريب والـوحـدة بين المسلمين باتجـاهاتهم الفكرية، والسيـاسية، المختلفة. فلم يكن يمانع من مـد يـد العون والمشورة والنصح للخلفاء الثـلاثة، ولم يكن خلافـه في الـرأي معهم سببـاً في إيجـاد الفـرقة والنـزاع بين المسلمين.[1]

وفي سنـوات خـلافة الامـام علي عليـه السـلام وقعت للمسلمين أحداث عظيمة لم يكن من السهل أبداجبر الكسر الذي نتج عنها، حتى أصبح السيف والدم هما الفاصلين بين المسلمين وأهم هذه الاحداث: رفض والي الشام تقديم فروض الطـاعة لخليفة المسلمين وخروجه، ونشوب معركة صفين، وظهور فرقة الخوارج، وظهـور بـوادر الطـوائف، والفرق نتيجة الآراء، والمواقف المختلفة التي اختلطت فيهـا المفـاهيم الفكرية، والسيـاسية، وكـان من أهمهـا تلك الآراء المتنـاقضة التي اتخـذت إزاء معـركة صفين. وكانت هـذه الفتـرة حـافلة بالمفـاهيم الجديـدة التي حملت على الاسـلام، والتفسيـرات والاجتهـادات الخاصة والكيفية بشأن القرآن الكـريم والسنة النبوية، فكـان الكثيـرون يبتـدعـون الآراء، والمـدارس الكفرية، ثم يفـرضونهـا على القرآن، والسنة، لتسويغها وتثبيتها، بدلا من استلهام أفكارهم من

(١) جذور المسألة الطائفية في الاسلام - علي المؤمن.

القرآن أو عرضها عليه، يقول الامام علي بن أبي طالب عليه السلام «فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم».

انقسام الأمة على الخلافة:

وعموماً، فإن الاتجاهات التي كان لها رأي من قضية الخلافة ـ نقطة الخلاف المركزية ـ انقسمت حيال محور القضية (الامام علي بن أبي طالب عليه السلام) إلى أربع فئات رئيسية:

الأولى: أبغضته وغالت في عدائه وهي على صنفين النواصب وخوارج عصره.

الثانية: غالت في حبه وهي فئة الغلاة.

الثالثة: عرفت حقه وقدره ومقامه وهي شيعته.

الرابعة: ساوته بالخلفاء الراشدين الثلاثة، وقدمتهم عليه في المنزلة واعتبرت أن اتجاهها معتدل وهي فئة أهل السنة.

وليس هذا التقسيم حقيقة مطلقة، بل ان فيه شيئاً من التداخل وإنما نذكره هنا لتوجيه الصورة المعقدة التي كانت سائدة آنذاك، وفي هذا المقام يقول الإمام علي عليه السلام: (وسيهلك فيّ صنفان محبٌ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخيرُ الناس فيّ حالاً النمطُ الأوسط فالزموه، والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة.[1]

وساهمت أحداث الفترة اللاحقة في بلورة الاتجاهين أو الفئتين الرئيسيتين الأخيريتين وبروز مصطلحي «الشيعة» و «السنة» للدلالة على مدرستين مختلفتين.

---

(١) نهج البلاغة – خطبة ١٢٧.

عوامل ظهور الفرق والمذاهب الفقهية والكلامية:

ولم يكن ظهور الفرق والمذاهب في الاسلام فجائياً أو منطلقاً من فراغ، بل إن له من الخلفيات والأرضية المناسبة والعوامل ما تفاعل بقوة، بحيث بات ظهورها أمراً طبيعياً ومتوقعاً، ويمكن حصر أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى الإعلان عن قيام المذاهب بشكل رسمي بما يلي:

الأول: أرضية الخلاف الواسعة، والتي كانت مزيجاً من عاملين سياسي، وفكري، كما مرّ.

الثاني: ظهور مناطق فراغ في المجالين الكلامي، والفقهي، وحاجة المسلمين لمعرفة تكليفهم الشرعي، الأمر الذي حمل الفقهاء والمتكلمين على سد هذه المناطق من خلال بلورة أفكار واتجاهات وأصول متباينة حيال تفسير القرآن وتطبيقه، وإخضاع ذلك للاجتهادات، وكذلك الحال بالنسبة إلى السنة المطهرة، وبذلك يختلف الموقف من القضايا المطروحة فيؤدي ذلك إلى اعتبارها حقيقة إسلامية عند بعض وبعيدة عن الاسلام عند بعض آخر.

الثالث: حاجة الحكام إلى اتجاهات تشريعية تناقض الاتجاهات التي تخالفهم فكرياً، وسياسياً، وإلى غطاء ديني يدعم ممارساتهم.

الرابع: الوضع السياسي العام، وحالة الانفتاح ـ خلال الفترة الانتقالية التي فرضها سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ـ والاستقرار النسبي الذي شهدته البلاد الاسلامية، وخاصة على مستوى الوضع الداخلي وحركة الفتوحات.

الخامس: شعور بعض الاتجاهات الفكرية، السياسية، التي لها عمق زمني بضرورة بناء كيان مذهبي مستقل انطلاقاً من اعتقادها بأنها تمثل الموقف الشرعي الملزم، وبأحقية تصوراتها في المجالات الكلامية، والفقهية، والسياسية.[1]

---

(١) جذور المسألة الطائفية في الاسلام – علي المؤمن.

وقد نشأت عشرات المذاهب الكلامية، والفقهية، خلال القرن الثاني والثالث الهجري، ويمكن أن نعتبر ذلك العصر من أهم عصور الاجتهادات في الفقه والفكر الإسلامي..

إلاّ أن هناك عاملين كانا وراء بقاء بعض المذاهب الفقهية واندثار الباقي[1] وهذان العاملان هما: اعتناق الخلفاء لبعض المذاهب وجعل القضاء مقصوراً على فقهاء ذلك المذهب ومن ثم دعم هذا المذهب الخاص، وجهد تلاميذ الأئمة في تدوين المذاهب ونشرها بنى الناس مما جعل النفوس تستريح إلى هذه الثروة الفقهية الهائلة وتستغني عن البحث والاستنباط وبالنتيجة تفضل التقليد على البحث والاجتهاد.

وقد مرّت المذاهب الفقهية (السنية) بعد قيامها وتبلور مناهجها بثلاث مراحل أساسية:

مراحل تطور المذاهب السنية:

المرحلة الأولى: مرحلة قيام المذاهب وتأسيسها وظلت نحو ثلاث قرون حتى سقوط بغداد على يد المغول سنة٦٥٦هـ حيث نما الفقه فيه وتطور وعرف لوناً من الاجتهاد، داخل نطاق المذهب وليس اجتهاداً في نطاق الشرع، كما تضاعف الاهتمام بعلم أصول الفقه ووضع قواعد كلية تندرج تحتها الأحكام الفقهية، وامتازت هذه المرحلة بتنظيم وترتيب الفقه المذهبي، فقد كان من أثر الدفاع عن المذاهب والدعاية لها والعمل على نشرها تأليف الكتب التي تجمع

(١) المذاهب الفقهية المعتبرة التي انتشرت وظلت حتى عصرنا الحاضر هي: المذاهب السنية الاربعة المشهورة (المالكية والحنفية والحنبلية والشافعية) والمذهبان الشيعيان الامامية والزيدية، ثم المذهب الاباضي.

شتـات المسائل في المذاهب وذكر المسائل الخلافية مع المذاهب الاخرى وتحرير أوجـه الخـلاف وبيـان رجحان المذهب، وكان نشاط الفقهاء في هذا المجال: لوناً من السبـاق العلمي الـذي خدم الفقه ورتب أبوابه وفصوله وكان من الأسباب التي حفظت فيه الائمة المجتهدين وعملت على تنميته وكثرة الكتابة فيه.

المـرحلة الثانية:بـدأت بعـد سقوط بغداد وظهور الحكومات الإسلامية المختلفة، حين غلب التقليـد على النشـاط الفقهي في المذاهب عبر توقف منهجية الاجتهـاد وإغـلاق بابه عنـد كثير من الفقهاء إلا الواعين منهم وساعد على ذلك تمـزق العـالم الاسـلامي وضعفـه واستبـداد الحكـام وتطـاحنهم من أجل النفـوذ والسلطـان وقـد نجم عن كل هـذاانهيـار الحيـاة العقلية والفقهية وانتشـار البـدع والضـلالات وحـرص الفقهاء على المناصب، وتجلي التقليد في هذه المرحلة في اجتـرار التـراث الفقهي عن طريق شرحـه واختصـاره او تنظيمـه من دون إضـافة جديـدة وطغيـان المبـاحث اللفظية والمسائل الافتراضية بصورة غير عقلية وابتعاد الفقه عن الحياة وما يحتاجه الناس من معاملات حيث طغى الشكل على الجوهر.

المـرحلة الثـالثة: والتي بـدأت بعـد الاحتكـاك والمـواجهة الاولى مع الاستعمـار الغـربي قبل مـائة عـام واستنهـاض المسلمين وخـروجهم من قـوقعة الانطواء والركـود منذ عصر السيد جمال الدين الافغاني الاسدآبادي، حيث بدأت دعـوة جـاده للنهوض، والعودة إلى الاسلام وتفعيل عملية الاجتهاد الفقهي، فقد أخـذت الـدراسـات الفقهية تشق طريقهـا نحـو التجديـد والتطوير ومواكبة العصر ومشكلاتـه المختلفة، وكانت العـوامل التي هيـأت لهـذه الدراسات أن تتطور هو ظهور عدد من المصلحين الذين قادوا حركة التجديد وحذروا من الجمود والركود وكـذلك التطـور الزمني ونحو المعارف البشرية والاحتكاك بين الحضارات وتيسر سبل الاتصـال بين الامم وانتشـار التعليم وظهور الصحافة والمجلات، ولكن الفقه

الإسلامي اليوم على الرغم من كثرة معاهده ومؤسساته ومؤتمراته ومؤلفاته مازال يعيش في دائرة النظر اكثر من دائرة التطبيق.[1]

مراحل تطور المذهب الشيعي:

أما المذهب الإمامي الشيعي فهو كذلك مرّ بمراحل مختلفة لعبت التطورات السياسية، والاتجاهات العقلية والفكرية، في بقائه وتطوره دوراً كبيراً بدأت مدرسة الفقه الشيعي الامامي من (المدينة) ثم انتقلت الى (الكوفة) في عصر الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لتبدأ عصر ازدهارها وانتشارها في فترة ما بين سقوط الحكومة الاموية، ونشوء الحكومة العباسية وحتى (الغيبة الكبرى) للإمام المهدي عليه السلام في نهاية القرن الثالث الهجري، وتتسم هذه المرحلة بنمو الحركة العلمية عند الامامية، وتدوين الحديث ونشر المذهب في البلاد المختلفة، وفيما بين القرن الرابع وحتى منتصف الخامس انتقلت المدرسة الامامية من العراق إلى ايران وبالذات إلى (قم وري) التي أصبحت في ذلك الوقت معقلاً من معاقل الفقه الامامي، بسبب الضغوط التي كان يواجهها علماؤهم من العباسيين، وقيام حكومة البويهيين ذات الولاء الشيعي وظهور شيوخ كبار في الفقه والحديث أمثال الكليني والصدوق. وفي هذه الفترة نشطت حركة التأليف والبحث الفقهي وتدوين المجاميع الحديثة الموسعة كالكافي ومن لايحضره الفقيه والتي تعتبر من الصحاح عندهم.

وفي القرن الخامس الهجري انتقلت المدرسة من (قم و ري) إلى (بغداد) حاضرة العالم الإسلامي آنذاك وكان من أسباب هذا الانتقال هو، ضعف الحكم

---

(١) للمزيد انظر (منهج التقارب بين المذاهب الفقهية) د.محمد الدسوقي.

العباسي وظهور شخصيات فقهية من بيوتات كبيرة في بغداد كالشيخ المفيد والسيد المرتضى، وتحولت بغداد الى مركز ثقافي كبير من مراكز الحركة العقلية في العالم الاسلامي، يقطنه الالاف من الفقهاء والمحدثين من كل المذاهب، وقد تبلورت ونمت مدرسة الفقه الشيعي في بغداد وخرج من دائرة عرض السنة ونقل الحديث الى مرحلة الاجتهاد المطلق واستخدام الاصول والقواعد وظهور الفقه المقارن أو الفقه الخلافي وكان للشيخ الطوسي دور كبير في تكوين هذا الاتجاه وخصوصاً بعد انتقاله الى النجف واستقرار مدرسة الفقه الامامي الشيعي فيها.[1]

وفي القرن العاشر الهجري ظهر تيار سلفي إخباري بين فقهاء الشيعة على يد الشيخ الاسترآبادي يعتمد الحديث والسنة كمصدر أساسي للفقه وكرد فعل لتطور واتساع الاعتماد على علم الاصول والحركة العقلية، ولكن بعد قرنين وبظهور العلامة الوحيد البهبهاني الذي أحيى الاصول وحركة الاجتهاد، سيطرت المدرسة الاصولية على الفقه الشيعي أي منذ ثلاثة قرون، ويعتبر احياء المذهب الفقهي الشيعي منذ ثلاثة قرون وتوسع نشاط الحركة الفكرية وتطوير الاجتهاد من نتائج هذا الاتجاه، ولايمكن ان ننسى دور الحكم الصفوي في اتساع رقعة التشيع في إيران وحواليها خلال تلك الفترة.

إن نمو وتطور نظرية ولاية الفقيه، والفقه الشيعي ودخوله معترك الحياة السياسية والاجتماعية على يد الامام الخميني رحمه الله ونمو الحركة الفكرية والاسلامية في المجتمع الشيعي[2] يعتبر امتداداً للخط الاجتهادي والاصولي لهذه المدرسة الفقهية.

---

(١) انظر تاريخ الفقه الشيعي في مقدمة كتاب (اللمعة الدمشقية) طبعة النجف ١٣٨٦.

(٢) راجع دراسة «منهجية التغيير والاصلاح في الفكر الاسلامي الشيعي» لصادق العبادي التي القيت في مؤتمر مناهج التغيير في الفكر الاسلامي المعاصر عام ١٤١٤هـ في الكويت.

ثالثاً: التعصب المذهبي والطائفي وأثره على الامة الاسلامية:

بعد نشوء المذاهب الكلامة والفقهية، ظهرت في كثير من المراحل ظاهرة التقليد لأئمة الفقه ثم التعصب للمذاهب وأصبح هذا التعصب مصدراً للتحامل والخصام والصراع بين الفقهاء، والناس، والحكومات الاسلامية، وفي كثير من الاحيان تبادل الفقهاء أو اتباعهم في دفاعهم عن مذاهبهم عبارات السخرية والعداوة وزعموا انهم بهذا ينصرون الدين، بيد أنهم كانوا يخذلونه بتفريق كلمة الامة وساعد على حدة التعصب المذهبي النزعات العرقية والاقليمية وأهواء بعض الحكومات، أولئك الذين جعلوا من المذهب ومن الخلاف والتفرق وسيلة لحماية استبدادهم وجورهم.[1] ولقد عرف التاريخ الفقهي ألواناً من التعصب الكريه بين أتباع المذاهب تجلت بعض صورة فيلما يلي:

صور غربية من التعصب المذهبي والطائفي:

١ ـ **المناظرات غير العلمية**: فبالرغم من أن المناظرات كانت في عصر أئمة المذاهب تتخذ طابع البحث العلمي الذي يهدف التوصل الى النتائج من مقدمات منطقية، وتعتمد الامانة والصدق والتعاون العلمي ورعاية أدب الاختلاف، والتي اعطت الفقه افكاراً جديدة وبلورة وازدهار.[2] إلا ان المناظرات في عهد تلاميذهم وخصوصاً في عصر التخلف والتقليد لم يكن الغرض منها تمحيص المسائل وإظهار الحق وانما محاولة إفحام الخصم. إن التعصب هو الذي

---

(١) انظر الكتب التاريخية التي تكتب عن تاريخ الصراع المرير والدموي بين الحكومة العثمانية والحكومة الصفوية.

(٢) لمعرفة المزيد من اسلوب المناظرات العلمية وأدب الاختلاف بين أئمة الفقه انظر كتاب (أدب الاختلاف في الاسلام) للدكتور طه جابر العلواني.

أحـال منـاظـرات كثير من الفقهاء الى صراع جدلي لايعرف الموضوعية أو الامانة وإنمـا يعـرف قصد الغلبة والتظاهر بالعلم والفضل ففقدت مهمتها في تنمية الافكار وتطويـرهـا وامست من عـوامل ضعف الحيـاة العلمية وتعميق قـوة الخـلاف بين المذاهب الفقهية وتوهين روابط الوحدة.

٢ ـ **انتشـار الاحكـام الغربية في الفقـه الاسـلامي**، وكـان من أوزار التعصب المـذهبي ظهور الاراء والاحكام غير اللائقة بحق اتباع المذاهب الاخرى كتحريم الـزواج من مـذهب آخـر، او بطلان الصلاة خلفه، أو تكفير اتباع المذهب الآخـر، أو اعتبـار آراء الغيـر باطلة ورأيه هو الصواب وما إلى ذلك من الآراء التي عمقت الخلاف والشقاق بين أبناء الامة في فترات طويلة.

٣ ـ **العمل بخـــلاف طريقة الائمة في الاجتهـاد**، بالـرغم من ان أئمة الفقه والعلماء من السلف الصالح كانوا لايرون قداسة لآرائهم، وكانوا يعتقدون بأن آراءهم اجتهـادات عـرضة للصواب والخطأ، وكانوا يخصون من يأخذ عنهم بأن يسلك سبيلهم في الاجتهاد، ولكن اتباع المذاهب صوروا المذهبية على أنها التزام مـذهب معين ولايجـوز أن يعمل بغيـر مذهبه وأحياناً عليه أن يقبل آراء المذهب دون منـاقشة لهـا أو اعتـراض عليهـا، وقـد أفتى بعضهم بأنـه لايجوز الانتقال من مذهب إلى آخر.

لقـد دفع التعصب المذهبي إلى العكوف على تقليد المذاهب والدفاع عنها وعـدم الخروج عليها وإن اشتلمت على بعض الآراء الضعيفة أو المخالفة للكتاب والسنة، وليس فقط ذلك وإنمـا كانـوا يناهضـون من يخـرج على آراء السابقين ويصف الامام الشوكاني (المتوفي عام ١٢٥٠هـ) هذه الحالة المزرية ويقول في كتابه «القـول المفيـد في أدلة الاجتهـاد والتقليـد»: فإذا تكلم عـالم من علمـاء الاجتهاد بشيء يخـالف ما يعتقده المقلدة قاموا عليه قومة جاهلية، ووافقهم على ذلك أهل

الدنيـا وأرباب السلطان، فإذا قدروا على الاضرار به في بدنه وماله فعلوا ذلك وهم بفعلهم مشكـورون عند أبناء جنسهم من العامة والمقلدة، لأنهم قاموا بنصرة الدين بـزعمهم، وذبـوا عن الأئمة المتبـوعين وعن مـذاهبهم التي قـد اعتقدهـا أتباعهم فيكـون لهم بهذه الافعال التي هي عين الجهل والضلال من الجاه والرفعة عند أبناء جنسهم ما لم يكن في حساب»..

ويبـدو أن هـذا التعصب قـد أعـاق حـركة الاجتهـاد والتجديد التي حاول بعض الاعـلام الـذين ظهـروا في عصـور الضعف والـركـود أن ينهضـوا بهـا عن الانطلاق وكسر طوق المذهبية الذي خنق الحرية الفكرية وأكره الامة على ان تسير في ركب التبعية المطلقة للآراء والاجتهـادات التي خلت، والتي إن صلحت لعصر فلن تصلح بالضرورة لغيره مما أطال أمد تخلفها وكسوف شمس نهضتها وفرق بنى أبنائها وأعطى للدخلاء فرص السيطرة عليها والسعي لغزوها عسكرياً وفكرياً.

٤ ـ **الصراعات الدموية**: كانت تلك الصورة المؤسفة للتعصب المذهبي في دائـرة القـول والكـلام وكانت على جرائـرهـا أيسـر وقعاً وأخف وزنا من هذه الصـور المحـزنة التي تمثلت في الصـراع الـدامي بين أتبـاع المـذاهب حتى في المسـاجـد دون مراعـاة لحرمتهـا. يروى انه في سنة٣٢٦هـ حصل في مصر قتال بين أتباع المذهب الشافعي، والمالكي ، والحنفي في المسجد الجامع العتيق وقد وصل أمـر هذا القتال إلى الاخشيد ا لذي كان واليها في ذلك الحين، فتدخل لفض النزاع ولم يتمكن من ذلك الا بعـد أن أرسل فـرقة من الجنود طردت الفقهاء من المسجد ثم أمـر بإغـلاقـه ولا يفتح إلا في أوقـات الصـلاة، وقـد سمح للفقهـاء بعـد ذلك بالتـدريس في المسجـد بعـد شفاعـات، وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي عنـد الحـديث عن مدينة اصفهـان وقـد فشـا الخـراب في نواحيهـا، لكثـرة الفتن والتعصب بين الشـافعية،والحنفية،ز والحروب المتصلة بينهما، فكلما ظهرت طائفة

نهبت محلة الاخرى واحرقتها وخربتها لايخافون في ذلك إلاّ ولا ذمة.

ويتحدث ابن كثير في البداية والنهاية في الجزء ١٢ عما وقع من فتن بين أرباب المذاهب والعقائد في بغداد فيذكر أنه في سنة٤١٤هـ حصل بين أهل الكرخ، وأهل باب البصرة فتن لاتحصى حصل فيها قتل ونهب وسلب ينحصر ولاينضبط، ويقول أيضاً: وفي عام٤٢٢هـ اغلق الشيعة الاسواق وعلقوا المسوح وخرجوا يبكون في الازقة فأقبل عليهم أهل السنة في الحديد واقتتلوا اقتتالاً وقوى عليهم أهل السنة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وهذا الصراع الدامي بقي حتى العصر الحاضر، فقد نشرت مجلة رسالة الاسلام مجلد ١٤ في القاهرة عام١٣٨٢هـ أن رجال الشرطة في مدينة كراتشي أعلنوا أن ١٢٠ شخصاً من المسلمين قد قتلوا كما أصيب ١٦ شخصاً آخرين على أثر معارك دامية نشبت بين السنة والشيعة في قرية ثاري التي تبعد ٢٥ ميلاً عن العاصمة الباكستانية. وحتى هذه الايام نسمع اخباراً من هناك لنفس الاسباب.

٥ - **تعدد الجماعات في المسجد الواحد**، وكان من ثمرات ذلك الصراع المؤسف، تعدد الجماعات في المسجد الواحد وبخاصة في المساجد الكبيرة كالجامع الاموى بدمشق، والجامع الازهر بالقاهرة، وأكثر الجوامع في العراق وإيران، فقد أصبح لأتباع كل مذهب محراب وإمام، كما تعدد القضاة بحيث كان لكل مذهب قاض يمثله.[1]

حصيلة الطائفية التمزق والتخلف والاستبداد:

وكما كانت الصراعات والنزاعات الطائفية بين المذاهب الفقهية في

(١) مقالة (منهج التقارب بين المذاهب الفقهية) د. محمد الدسوقي في مؤتمر الوحدة الاسلامية - طهران.

أصفهـان، وبغـداد، ودمشق، وراء نجـاح المغـول للسيطرة على البلاد الاسلامية، كـذلك إن هـذه الصـراعـات كانت وراء سقـوط اكبـر حكـومتين اسـلاميتين هي الحكـومة الصفوية في ايـران، والخـلافة العثمانية في تركيـا. فخلال حكم الدولتين العثمانية (الحنفية) والصفوية (الامـامية الشيعية) أصبح الصـراع الطـائفي في جانبه الاعظم صراعا وتنافساً سياسياً مغلفاً بالشعارات المذهبية، وقد ساهمت في تعميقه دول أوروبا (التي كانت في بدايات نفوذها الخارجي)، بهدف تفتيت وحدة الدول الاسـلامية. فخلال انتصارات العثمانيين المتتالية في عمق اوروبا والتمدد الصفوي في المنطقة، وبعـد ان اصبحتـا اقـوى دولتين في العـالم الاسـلامي اجمع، تحـرك الاوروبيـون لضربهما من الداخل، فنشبت الحروب بينهما، حتى قيل ان أية دولة في العـالم لم تستطع الـوقـوف بوجه العثمانيين سوى الدولة الصفوية، وأن أية دولة لم تعـاد الصفويين أكثـر من الـدولة العثمانية. وفي الـوقت الـذي كـان فهى الاخـوان (روبـرت وانطوني شـرلي) الانكليزيين متحمسين لصنـاعة المـدافع النـارية للشـاه عبـاس الصفـوي (ت١٦٢٩م) بغية استعمـالهـا في الحـرب ضـد العثمانيين، فإن العثمانيين كانوا يخرجون شيعة العراق من الجيش أو الرتب العليا فيها.[١]

وقـد كـان التعصب المذهبي وراء قتل الحرية العقلية وتفرق الامة الواحدة، واستبداد بعض الولاة والحكام بها، مما قضى عليها بالضعف والتخلف عدة قرون، وقـد أتاح هذا لأعدائها لكي ينقضوا عليها، ويثأروا منها، فهم لم ينسوا جراحاتهم في حطين وغيـرهـا من المعـارك ولهـذا سلبـوا الانـدلس، وصقلية، وجـزر البحـر المتـوسط، وفلسطين، واحتلـوا كثيراً من أقطارها، وفرضوا عليها قوانين وعادات تباعد بينها وبين أصالتها، وتسير بها شيئاً فشيئاً الى الغربة الكاملة عن دينها وتراثها.

---

(١) كتاب ايران من الداخل – فهمي هويدي.

واذا كانت الامة الاسلامية تنعم في حاضرها بالاستقلال والحرية فهي مازالت تعاني من تلك الآثار، وليس أدل على ذلك من أنها تملك أسباب القوة والنهضة، ومع هذا تصنف ضمن الامم الضعيفة المتخلفة او الامم النامية، لأنها لازالت تجتر تاريخاً بغيضاً يمنعها من الوحدة والتعاون، والانتفاع بما تملك من إمكانات هائلة، بسبب تفرقتها ولم تبلغ في ثقافتها وعلمها مبلغاً يؤهلها لأن تلحق بالأمم التي سبقت في مضمار الحضارة والتقدم.

رابعاً: رؤية الاتجاهات الإسلامية عن التقريب والوحدة:

واذا كانت الرؤية القرآنية تعتبر الاختلاف والتفرق والتنازع هو السبب الرئيسي في الضياع والتخلف كما في الآيات الشريفة:

- **﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾** «الانفال: ٢٦».
- **﴿... ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون﴾**«الروم: ٣١-٣٢».
- **﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء...﴾** «الانعام:١٥٩».
- **﴿... وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم...﴾**« آل عمران: ١٩».

فماذا فعل المسلمون في هذا الاتجاه لكي يتجاوزوا التعصب والطائفية ويصلوا إلى الحد الأدنى من الوحدة الاسلامية:

أطروحات الوحدة والتقريب:

اختلفت الاطروحات عن الوحدة الاسلامية، فهناك «الاطروحة المثالية» ـ على حد قول السيد محمد حسين فضل الله ـ التي تواجه المشكلة بالروح الغيبية الضبابية التي تحاول إبعاد المشاكل الحية عن تفكير الامة بالايحاء بأنه لا خلافات صعبة بنى المسلمين، وأن علينا تناسي القضايا الهامشية، والوقوف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الاعداء وهكذا يغرق الانسان المسلم فيما يشبه الاحلام في أجواء عاطفية فيستسلم لهذا الحذر. ثم يرجع الى الواقع في داخل حياته اليومية، فيجد امامه اكثر من مشكلة حادة، واكثر من خلاف متحرك في عمق ممارساته وعلاقاته.

وهناك «الاطروحة الواقعية» التي تؤكد على مواطن اللقاء، كما تؤكد على مواطن الخلاف، ولكنها لاتضع مواطن الخلاف في الجانب الذاتي الشعوري للامة، بل تضعها في الجانب الفكري من نشاطها، وتوحي بأن مثل هذه الخلافات ليست مقصورة على الفئات الكبيرة من المسلمين فيما بينها، بل هي موجودة في داخل كل طائفة أو مذهب ـ في اكثر من جانب فقهي أو كلامي ـ ثم تثير أمام المسلمين قواعد الحوار القرآني الذي يريد للأمة ان تناقش قضاياها في الداخل وفي الخارج من موقع التفكير الموضوعي الهادىء الهادف إلى معرفة الحقيقة من أقرب طريق بالحجة والبرهان الواضح، وتقودهم الى الاسلوب الاخلاقي في الصراع، الذي لايستخدم كلمات السباب والشتائم في حركة الخلاف، بل يتحرك من موقع الجدال بالتي هي أحسن، واختيار الكلمة الاحسن والاسلوب الاحسن الذي يدفع بالاعداء الى ان يتحولوا إلى أصدقاء.

وقد عاشت تجارب الوحدة ـ في اكثر من اسلوب ـ في التجارب الثقافية على التأكيد على الآفاق الوحدوية في الثقافة الاسلامية، كما عملت على ارجاع

الخلافات الى أسس فكرية من المصادر الاسلامية كالكتاب والسنة في أسلوب ايحائي بالطابع الاجتهادي العلمي لهذا الخلاف. وفي التجارب الاجتماعية، والسياسية، في اللقاء على اكثر من أرض اسلامية وأحسن فيما يعيشه المسلمون من قضايا اجتماعية وسياسية مشتركة.[1]

نظرة المسلمين الشيعة الى الوحدة الاسلامية:

اما نظرة الشيعة إلى الوحدة الاسلامية، فإن هناك اتجاهين الى الوحدة:

الاتجاه الاول: الذي يرى ان مشروع الوحدة يعمل على تذويب الشيعة في المحيط الاسلامي العام. ويؤدي إلى فقدان الركائز الاساسية لفكرة التشيع وهي الامامة وما يتبعها من قضايا فكرية وفرعية فيتحول الشيعة الى سنة. وبذلك لن تكون عملية الوحدة الا أسلوبا من أساليب إحتواء فئة من المسلمين لفئة اخرى، وليست عملية جمع للمسلمين على أساس الحق. ويضيف هؤلاء: اننا قد نوافق على عملية التذويب والاندماج لو كانت القضية قضية هامشية طارئة يمكن للانسان ان يتجاوزها كما يتجاوز الكثير من القضايا الحياتية الطارئة، للمحافظة على المصلحة العامة، ولكن القضية تمثل ـ في وعينا الفكري ـ قضية إلتزامنا الإسلامي بخط الحق في العقيدة والتشريع، لأن مسألة الإمامة ليست مسألة شخص أو أشخاص أو موقف سياسي معين، بل هي مسألة القاعدة الشرعية التي انطلقت القناعة فيها من الدليل والبرهان، فلا يمكن للإنسان أن يتنازل عنها انطلاقاً من تسوية خاضعة لأوضاع معينة.

الاتجاه الثاني: الذي يرى أن مسألة الوحدة ليست مسألة إدخال الشيعة

---

(١) العلامة محمد حسين فضل الله – الشيعة والوحدة الاسلامية.

في محيط السنة أو بالعكس في عملية اندماج وتذويب للشخصية الفكرية الخاصة التي يحملها كل واحد منهما بطريقة عاطفية، بل هي مسألة روحية نفسية في البداية كما هي مسألة فكرية عملية في النهاية، لأن قاعدة التفكير الوحدوي ترتكز على أساس الايحاء للمسلمين بالروحية الاسلامية التي ينبغي ان تطبع شخصيتهم فيما تمثله الشهادتان من عقيدة والتزام وحركة في حياتهم العامة والخاصة، مهما اختلفت نظرتهم الى التفاصيل، الامر الذي يثير فيهم مشاعر الوحدة، ويحلق بهم في آفاقها، ويوحي لهم بمسؤولياتها لتكون هذه الروحية سبيلا من سبل اللقاء الذي يساعد علي التفاهم والتحاور والتعاون. فيمكن للشيعي ان يقنع السني بطريقته في فهم الاسلام وفي ممارسته، كما يمكن للسني ان يقنع الشيعي بطريقته وبممارسته، ويمكن لهما ان يكتشفا من خلال اللقاء الفكري سبيلا آخر.

ويضيف أصحاب هذا الاتجاه قائلين: إن النتائج الايجابية التي يحصل علهيا المسلمون الشيعة في مسألة الوحدة لاتقاس بالنتائج السلبية التي يعيشونها في مسألة الفرقة والخلاف الفكري والعملي الذي يتحرك من موقع العقيدة الذاتية لامن موقع المصلحة العامة.

نظرة المسلمين غير الشيعة الى الوحدة:

أما نظرة المسلمين غير الشيعة الى الوحدة مع الشيعة فهناك ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الاول: الذي ينظر الى الشيعة بأنهم خارجون عن الاسلام فيما ينسبه اليهم أصحاب هذا الاتجاه من عقائد في الغلو، والشرك، و تحريف القرآن، أو ايمانهم بقرآن آخر غير هذا القرآن وما الى ذلك من مفاهيم لاتلتقي مع الاسس العقائدية التي ركز الاسلام عليها فكره وشريعته، وبذلك لايسعى لطرح قضية الوحدة معهم.

الاتجاه الثاني: الذي لا يرى في الشيعة هذا الرأي، بل يرى أنهم مسلمون فيما يرتكز عليه الاسلام من عقيدة وشريعة، وان الخلافات بينهم وبين السنة كالخلافات بين السنة انفسهم في بعض تفاصيل العقيدة والشريعة، فهم مسلمون مخطئون في بعض ما يعتقدون، فحالهم حال أي مسلم مخطىء في اجتهاده فإن الخطأ لا يخرجه عن إسلامه بل يكون مسلماً خاطئاً مأجوراً، ولكن أصحاب هذا الاتجاه أيضا لا يرون مصلحة في الوحدة مع الشيعة. ولعل الواقع الذي يعيشه جمهور المسلمين من أهل السنة يعيش عمق هذا الاتجاه ولكن بدرجات مختلفة.

الاتجاه الثالث: الذي ينطلق في حركته الإسلامية من موقع الإيمان بوحدة المسلمين الواقعية، وبأن الخلافات فيما يختلفون فيه لا تضر بهذه الوحدة، كما لا تضر خلافات المذاهب بين بعضها في وحدتهم الاسلامية، وعلى هذا الاساس كانوا يرون في الوحدة امرا واقعيا في عمق الشخصية الاسلامية، ولا بد لنا من تحويله الى خطوة عملية في حركة الاسلام في الحياة. ويتمثل هذا الاتجاه في الحركات الاسلامية الواعية وفي الشخصيات الفكرية المسلمة التي تعيش مسئولية الاسلام من خلال الآفاق الرحبة الواسعة لا من خلال الآفاق الضيقة الخانقة، وقد ساهم أصحاب هذا الاتجاه في خلق جو وحدوي عام، وفي صنع مجتمعات هنا وهناك تعيش روحية الوحدة بانفتاح وإيمان وذلك من خلال اللقاء بالاتجاه الثاني الموجود في مجتمع المسلمين الشيعة الذي يرى في الوحدة عنصراً إيجابياً في حركة الاسلام العامة.[1]

وقد انطلقت هذه الحركة الوحدوية في انطلاقة جديدة بعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران التي طرحت شعار الوحدة الاسلامية والتقارب بين المذاهب

---

(١) العلامة محمد حسين فضل الله – الشيعة والوحدة الاسلامية.

من خـلال مجموعة خطوات ثقافية وعملية في هذا الاتجاه.[1] ولا يزال الاختلاف حول الوحدة قائماً بين أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة، ولا تزال الساحة تحفل في كل يـوم بالجديـد من النتـائج السلبية والإيجابية في هذا الخط أو ذاك، ولا يزال المستقبل الاسـلامي ينتظـر النتائج النهائية لهذا الصراع، ليلتقي بالوحدة الاسلامية كنتيجة إيجابية للوعي الإسلامي الجديد..[2]

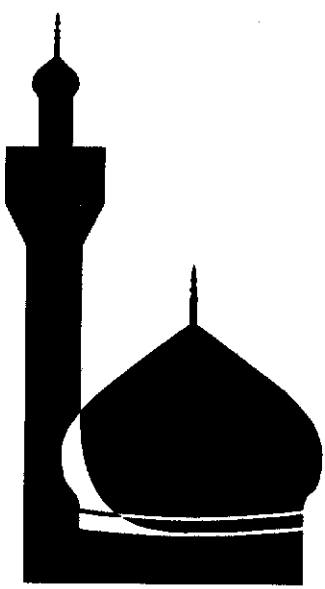

---

(١) قامت الجمهورية الاسلامية في ايران بتبني شعار الوحدة والتقارب بين المذاهب من خلال إحياء مؤسسة التقريب بين المذاهب التي جمدت نشاطها في مصر، وإقامة مؤتمر سنوي عن الوحدة والسبل العملية للتقريب، وتبني القاعدة الاسلامية في مجال الفكر والتشريع.

(٢) طرح الكاتب في نهاية مقاله اقتراحات عملية على المؤتمر حذفناها للاختصار (التحرير).